

## مكية

## الجزء الثامن عشر

## آياتها ٤٢

**سُورَةُ عَبَسَ، سُورَةُ مَكِّيَّةٌ،** وكان سبب نزول أوائلها: أَنَّ ابْنَ أُمَّ مَكْتُومٍ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَنَاجِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبِيًّا وَأُمِّيَّةَ ابْنَيْ خَلْفِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ، فَقَامَ ابْنُ أُمَّ مَكْتُومٍ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي، بِمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيَكْرُرُ النَّدَاءَ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغَلٌ مُقْبِلٌ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَّةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «يَقُولُ هُوَ لَأَنَّ الصَّنَادِيدُ إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمَيَّانُ، وَالسَّفَلَةُ، وَالْعَبِيدُ»، فَعَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يَكْلِمُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ (١).

وكان سبب إعراض النبي ﷺ وإقباله على أشرف قريش؛ طمعاً في إيمانهم وإسلامهم، وحرصاً على دعوتهم، فعاتبه الله **عَزَّوَجَلَّ** بهذا العتاب اللطيف، الدال على علو منزلته وعظيم فضله، حتى أنه جعل الخطاب للغائب، فلم يقل: «عبست وتوليت».

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَعْتَبَ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَنِّي ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مَكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ عَبَسَ ﴾ أي: بوجهه، والعبوس: قطوب الوجه وتغيره، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي: ببدنه فحول عنه وجهه والتفت إلى من يرجوا إسلامهم.

﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ أي: حين جاءه ابن أم مكتوم، وهو عمرو وقيل عبد الله بن أم مكتوم. وفيه أن الكرامة عند الله بالإيمان، وليست بالمال ولا بالحسب والنسب، فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢).

(١) «أسباب النزول» للنيسابوري (٤٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وقد قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١٣] ﴿ [الحجرات: ١٣]، فانظر إلى هذه المكرمة العظيمة لهذا الأعمى المحقر عند قريش ذكر الله شأنه في القرآن، معاتباً في شأنه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع أن النبي ﷺ إنما همم الدعوة إلى الله، وكان يجالس الضعفاء وغيرهم، ولكنه طمع في إسلام كفار قريش بإعراضه عنه.

﴿ وفيه جواز ذكر الشخص بوصفه الذي هو عليه كالأعمى والأعرج للتعريف. والعمى ينقسم إلى قسمين: عمى بصر، وعمى بصيرة، وأهونها: عمى البصر، فإن الله عزَّجَلَّ وصف الكفار بأنهم ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى ﴾ [البقرة: ١٨] مع أنهم يبصرون بأعينهم.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ ﴾ أي: أن هذا الأعمى قد تقع منه الزكاة، فيطهر نفسه من الذنوب والمعاصي، ويطهرها بطاعة الله عزَّجَلَّ، بخلاف من أقبلت عليه، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أو أن هذا الأعمى قد يتذكر ويستفيد من المواعظ التي يسمعها منك بخلاف ذلك الكافر المعرض.

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ أي: الكافر الذي ليس له رغبة في الإسلام. ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ فأنت تتعرض له وتجلس معه ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزِنَنَّ ﴾ كما قال الله جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فهو أعلم بالمهتدين، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ؕ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ [فاطر: ٨]، والمعنى ليست عليك زكاته وليست تحت قدرتك إلا أن يشاء الله.

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ وهو الأعمى جاء مسرعاً إلى النبي ﷺ ليأخذ منه علماً وفقهاً، وهذا هو حال أهل الإيمان في كل زمان أنهم يحرصون على أخذ الخير والعمل به، والسعي هنا قد يكون على ظاهره: سعي البدن أو المراد به السعي المعنوي، وهو السعي لتحصيل الخير والصلاح، ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ حال كونه يخشى الله عزَّجَلَّ ويراقبه ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ لَهَايٍ ﴾ تُعرض وتقبل على الكافر مشتغلاً به.

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: حقا أن القرآن تذكرة، وما تقدم من عتاب الله عزَّجَلَّ لمحمد ﷺ ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة يستفيد منها من أراد الله له الفائدة، فإذا كان الله قد عاتب محمداً ﷺ النبي الكريم، فكيف بنا، مع أن نبينا ﷺ إنما طمع في إسلام بعض عظماء قريش؛ ولعل في هدايتهم هداية لغيرهم، واستقامة لغيرهم، ومع ذلك عاتبه الله ووعظه بهذه الموعظة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴾

أي: اتعظ واستفاد، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]، ففي باب القدر الشرعي لا يرضى الله الكفر ولم يأذن به، ولا يجبه، بل يعاقب عليه بالطرده من رحمته، وأما القدر الكوني فله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ❖ ❖ ❖ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ  
 إِنَّ عُدُوبًا فَعْدَلُهُ، أَوْ نَعْمُوا ❖ ❖ ❖ فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم ذكر مكان هذه الذكرى وأنها لا تنال بالأيدي فيعبث بها العابثون.

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴾ أي: أن هذه التذكرة في صحف مكرمة، صحف مكتوبة مُعظمة ﴿ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ مرفوعة أن تنالها الأيدي عبثاً، ومطهرة مما يخالف الشرع ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أي: بأيدي الملائكة السفرة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ» (١).

وقد ذكر العلماء في معنى السَّفَرَةِ آمرين:

الأول: أنهم الكتبة، من السُّفْرِ وهي الكتب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] فيكون المعنى أنهم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد وما يتعلق بذلك، الثاني: أنهم سفراء بين الله عَزَّجَلَّ وبين المكلفين، فإن جبريل الروح الأمين هو الذي نزل بالوحي الشريف على محمد ﷺ.

﴿ كِرَامٍ ﴾ في صفاتهم، والكرم: كثرة الخير، فهم على جمال في صفاتهم وذواتهم ﴿ بَرَّةٍ ﴾ قلوبهم وأعمالهم لكثرة أعمال البر، فإنهم كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

والبرُّ: كلمة عامة تشمل كل طاعة لله عَزَّجَلَّ من التوحيد فما دونه، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّنَ وَعَائِي الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمْرُهُ ﴿٢٣﴾ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْتُنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِنَعْمَعَنَّكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

ثم أخبر الله عزَّجَلَّ عن حال الإنسان وكفرانه للنعم مع وضوح الحجج والبراهين الدالة على استحقاق الله جَلَّ جَلَالُهُ للشكر والحمد عليها: ﴿ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قيل هلك، وقيل: لعن ﴿الْإِنْسَانِ﴾ أي: الكافر، وقيل جنس الإنسان وأكثر الناس على الكفر إلا من رحم الله.

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قيل: ما سبب كفره، وقيل: أنها على التعجب أي: ما أشد كفره وإعراضه عن دين الله عزَّجَلَّ مع وجود الدلائل الواضحات والحجج الدامغات في بيان وجوب التوحيد على العباد! قال الله عزَّجَلَّ: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] فيكون في هذا النظر عبرة وآية يدخلون بها للإسلام ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]، إلى غير ذلك من الآيات، ومع ذلك ما أشد كفر الإنسان وجحود الإنسان بحق الملك الديان، والله المستعان.

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ يقول: هو مخلوق حتى يتعاضم ويتكبر، مع أنه من نطفة حقيرة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم تجتمع في رحم المرأة مشيج، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ بدء نشأته من هذه النطفة في رحم المرأة، فقدرة تقديرًا، حيث يكون نطفة ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظام، ثم يكسو العظام لحمًا، فإذا تم الأجل خرج من بطن أمه وبدأ رضيعًا، ثم يجلس، ثم يجبو، ثم يقوم، وهكذا حتى يرد إلى أرذل العمر، كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَنُوفُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾ [الحج: ٥].

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ أي: يسره لسبيل الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، وقال: ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ﴾ [صَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ ٦] فَسَيَسِيرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَيْعِ الْغَزَقِدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا كَتَبَ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَنْتَكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَتَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيَسِيرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيَسِيرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ﴾ [صَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ ٦] [الليل: ٥-٦] الآية (١).

﴿ ثُمَّ أَمَانَةٌ ﴾ بعد حياته الطويلة ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أودعه في الأرض، ووري بالتراب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ [أَحْيَاءُ وَأَمْوَاتًا ٣٦] [المرسلات: ٢٥-٢٦] أي: تكفتمكم أحياء بتغيب فضلاتكم وما يخرج منكم ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ أي: تغيبكم بعد موتكم.

والقبر يعتبر مكرمة للإنسان؛ لأن كل حيوان يموت يترك، فتظهر جيفته وربما أكلته السباع ونهشته الوحوش بخلاف الإنسان، فإنه يُوارى ويُدفن في التراب، ولذلك حينما قتل ابن آدم أخاه بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يُوارى أخاه، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُوَارَىٰ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارَىٰ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

وكرمَّ الله المسلمين بمزيد عناية في ذلك: فيحسن كفنهم، وتعمق قبورهم، ويُلحد لهم، حتى لا يصل إليهم التراب، ويوضعون على أيانهم، ويدخلون بِاسْمِ اللَّهِ على ملة

ورسول الله ﷺ، ثم صان الله قبورهم بعد موتهم فحرم وطأها، فعن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا» (١)، وقد نهى النبي ﷺ عن الكتابة عليها، بل وبالغ في إكرامها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى حتى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عندما حَانَتْ مِنْهُ نَظْرَةٌ، فَإِذَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي الْقُبُورِ عَلَيْهِ نَعْلَانِ، فَقَالَ: «يَا صَاحِبَ السُّبُتَيْنِ، وَيْحَكَ أَلْتِ سِبْطَيْتِكَ» فَظَنَرَ الرَّجُلُ فَلَمَّا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلَعَهُمَا فَرَمَى بِهِمَا (٢)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ، أَوْ سَيْفٍ، أَوْ أَحْصَفَ نَعْلِي بِرِجْلِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ، وَمَا أَبَالِي أَوْسَطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي، أَوْ وَسَطَ السُّوقِ» (٣)، وحرَم تعظيمها وتشيدها، ففي وصية النبي ﷺ لعلِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْ لَا تَدَعَّ تَمَّالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ» (٤)، والقبر بعد ذلك نعيم أو عذاب: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» (٥).

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ ثم للتعقيب، متى شاء أنشره، بعثه وأخرجه من قبره إلى أرض المحشر والمنشر، فيُجازى على عمله، فإن كان من المسلمين المؤمنين الموحدون كان مآله إلى جنة النعيم، وإلى إكرام رب العالمين، وإن كان من الكافرين المجرمين كان مآله إلى الجحيم، نسأل الله السلامة.

وإذا أراد أن ينشره فلا يعجزه شيء سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤] صيحة واحدة في الصور فإذا هم على وجه الأرض، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبِيلُ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦). أي: يعيد الله عزَّجَل خلق الإنسان بعد موته من عجب الذنب.

﴿كَلَّا لَمَّا بِيضَ مَا أَمْرُهُ﴾ جماهير المتقدمين من المفسرين يقولون حقًا بأن الإنسان عاجز أن يأتي بما أمره الله عزَّجَل على أكمل الوجوه، ولكنه يتقي الله ما استطاع؛ لقول الله عزَّجَل: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولقوله عزَّجَل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً تَنْهَأً﴾ [الطلاق: ٧].

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٠)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٨١) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٧)، والحديث في «الصحیح المسند» (٩٣٢) لشيخنا مقبل الوداعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، ابن ماجه (٤٢٦٧)، عَنْ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقيل المعنى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يقع البعث والنشور إلا متى أراد الله عَزَّجَلَّ، وهذا القول استظهره ابن كثير، لكن المعنى الأول أليق، ﴿كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمْرُهُ﴾ أي: أن الإنسان لم يأت بها أمر به إلا مع وجود بعض الضعف، والناس يتفاوتون.

ثم بين الله جَلَّجَلَّاهُ قدرته ببيان حال الإنسان في الدنيا وأرشد إلى النظر والتفكير في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي: ليتأمل الإنسان في دلائل الله وآياته، وضرب له مثلاً بأقرب الأشياء إليه؛ حتى يتوصل بها إلى مزيد الإيمان ودرجات الإحسان ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ والمراد بالنظر هنا: نظر تفكير وتعقل لا نظر تفرج، فإن كثيراً من الناس يذهبون إلى المزارع وينظرون إلى خضرتها وبهائها ويرجع إلى بيته ليس له إلا ذاك، لكن المراد نظر تأمل وتعقل وتفكير تدله على قدرة الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى مأكوله ومشروبه.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أنزلنا الماء من السماء على الأرض بكثرة ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، يصبه من السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤]، وفي نزول المطر آية من آيات الله العظيمة، إذ أن الله ينشأ سحاباً ربما لا جرم له، محسوس وإن كان يرى، لكن لو مر السحاب من عندك تمد بيدك لا تجده إلا إذا وجدت رطوبته، ومع ذلك هذا السحاب يتكون فيه جبال من برد، وتنزل منه أمطار غزيرة، فيسقي الله عَزَّجَلَّ بها البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَطَرًا يُبْرَأُونَ مِنَ الْمَاءِ وَالْبُلْبُوبُ يُبْرَأُونَ مِنَ الْمَاءِ وَالصَّالِصُّ يُبْرَأُونَ مِنَ الْمَاءِ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُ لِلَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَطَرًا يُبْرَأُونَ مِنَ الْمَاءِ وَالْحَيُّونَ يُبْرَأُونَ مِنَ الْمَاءِ وَالْأَنْعَامُ كُلُّ غَنَاقٍ يُبْرَأُ مِنَ الْمَاءِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: أمر المزارعين أمراً كونياً بالزراعة والحراث، وهو الذي علمهم بذلك، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: أصنافاً من الحب كالذرة والشعير والحنطة وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا﴾ أعناب منه الأخضر، والأحمر، والأسود والحلو، والمر، والحامض ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو القث على اختلاف أصنافه تأكله الدواب لاسيما البقر وغيرها، ويكون سبباً في در الحليب، وقد يكون المراد بالقضب نفس هذه الشجرة التي تسمى قضب ويعرفها المزارعون، وقد يريد به جملة الأشجار التي تكون مرعى للدواب والأنعام.

﴿وَنَخْلًا﴾ الشجرة المعروفة التي يستصبح ويدهن بزيتها، وتؤكل ثمرتها، وتتخذ إداماً، فهي شجرة مباركة، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾

﴿٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ﴿وَمَخَلَا﴾ معروفٌ، ثمرهٌ لذيذٌ، وسعفه يصلح بساطًا، وساقه طويل كما قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ١٠-١١]، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَحَدَائِقُ غُلْبًا﴾ أي: مزارع فيها أشجار، قيل سميكة، وقيل عالية، وقيل ملتفه، وربما شملت جميع المعاني، فإن الأرض الزراعية تنقسم إلى قسمين: أرض تزرع فيها الأعشاب وهي سريعة الموت، وأرض تزرع فيها الحدائق الغناء، والأشجار العظيمة، فتبقى على هيئتها في الصيف والشتاء.

﴿وَفِكَهَةٌ﴾ أي: مما رزقهم الله: فاكهة من الرمان، والبرتقال، والتفاح، والسفرجل، وكم هي الفواكه العظيمة التي يمتن الله بها على عباده، ﴿وَأَبًا﴾ أعشاب ترعاها دوابهم، وأما ما روي عن أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ [عبس: ٣١]، فَقَالَ: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلِّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّنِي إِذَا قُلْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ»<sup>(٢)</sup>، فهو منقطعٌ بين إبراهيمَ النَّيْمِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما ما جاء عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَفِكَهَةٌ وَأَبًا﴾ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْأَبُ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا هُوَ التَّكْلُفُ يَا عُمَرُ!<sup>(٣)</sup>، فليس معناه أنه لا يعرف الأب، ولكن رأى أن البحث عن نوعه وجنسه يعتبر من التكلف، وإلا ما من عربي يفهم لغة العرب إلا ويعرف معنى الفاكهة ومعنى الأب، والذي يظهر أن اسم مدينة (إب) مأخوذ من هذا الأمر؛ لأنها بلد وإن كانت تخضر في موسم الربيع إلا أن سبب اخضرارها الأعشاب.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ بعد أن بين قدرته في هذه الأشياء: ﴿مَنْعًا لَكُمْ﴾ أكل هذا جعله الله متاعًا تتمتعون به فتأكلون وتشربون وتدخرون ﴿وَلَا تَنْعَمُوا﴾ دوابكم من البقر والغنم والإبل، فتستمتعون وتستمتع أنعامكم ثم تستمتعون أيضًا بأنعامكم التي قد كبر حجمها، ولذ لحمها، وكثرت ألبانها.

(١) متفق عليه، البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ ط أشبيلية» (٣٢١٠٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف/ ط أشبيلية» (٣٢١٠٣).

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ۗ ٢٣ ۗ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۗ ٢٤ ۗ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۗ ٢٥ ۗ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ۗ ٢٦ ۗ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ۗ ٢٧ ۗ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۗ ٢٨ ۗ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۗ ٢٩ ۗ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۗ ٤٠ ۗ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۗ ٤١ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ۗ ٤٢ ۗ ﴾

وبعد أن بين الله **جَلَّ جَلَالُهُ** عجائب القدرة ذكر اليوم الآخر وما فيه بقوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ** ﴾ إذا جاء يوم القيامة، وسميت بالصلاة؛ لأنها تكون بصوت مرتفع تصخ معه الأذان وتصم من شدتها، ومن وصفها أنها: ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** ﴾ في يوم يهرب المرء من أخيه، وبدأ بالأخ؛ مع شدة حرص الأخ على أخيه وتعصبه له في الدنيا، ومع ذلك يفر منه يوم القيامة، ﴿ **وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ** ﴾ ويفر أيضًا من والديه ويفران منه، ﴿ **وَصَاحِبِيهِ** ﴾ زوجته، ﴿ **وَبَنِيهِ** ﴾ أي: أحرص الناس عليه في الدنيا يهربون منه ويفر منهم؛ لأن ذلك اليوم كما قال الله **جَلَّ جَلَالُهُ**: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ [المدر: ٢٨] أي: مرهونة بعملها، وكل إنسان يقول: نفسي نفسي ﴿ **وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا** ﴾ [المعارج: ١٠].

﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ** ﴾ من الرجال والنساء ﴿ **يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ** ﴾ هذا هو سبب فرار بعضهم من بعض؛ أن كل واحد مشغول بنفسه وبعمله، وهذا حين يجد كل واحد عمله، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَعْجُدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ فَفَسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والشأن: هو الشغل الذي يتبلى به الإنسان.

ثم بين الله **عَزَّجَلَّ** حال الناس في هذا اليوم: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ** ﴾ وهي وجوه المؤمنين ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فوجوه المؤمنين مسفرة أي: جميلة هبية، كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢] أي: فيها النصارة والبهاء. ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٣] بسبب نظرها إلى الله ﴿ **ضَاكِكَةٌ** ﴾ مسرورة لما حصل لها ﴿ **مُسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ بوعد الله **عَزَّجَلَّ** الذي بشرهم به أنبيائه، وبشرهم به ملائكته، كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [٣٠] نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

﴿وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه الكفار، ﴿يَوْمِيذٍ﴾ أي: في القيامة، ﴿عَلَيْهَا غَبْرَةٌ﴾ أي: سواد حيث تغيرت وجوههم البيضاء إلى السواد؛ بسبب ما كانوا عليه من الذنوب العظيمة، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تعلقها القترة فبدل الجمال الذي كانت عليه في الدنيا صارت سوادًا ومنظرًا سيئًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين تقدم وصفهم ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجحدة لربوبية الله وألوهيته، والمتمردين على شرعه ودينه ﴿الْفَجْرَةُ﴾ الذين ارتكبوا كل فجور من الشرك فما دونه، فاستحقوا هذا العذاب الأليم والخزي العظيم بأن تكون وجوههم يوم القيامة مسودة، وتكون قد علتها القترة التي غيرت من نظارتها وحالها.

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَأَلْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رَجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

الذيخ: هو ذكر الضباع.

والحمد لله رب العالمين.

